المعنى من دلالة المديح إلى الهجاء ، دون نظر إلى الإطار الكلي للدلالة ومقتضيات العلاقة التركيبية بين الكلمات ، وقد قيل لنصيب : لم لا تهجو كما تمدح ، وقد أقرَّت لك الشعراءُ بالمدح ؟ فقال : تراني لا أحسن أن أقول مكان عافاه الله ، أخزاه الله ؟ ولكني أدع الهجاء لخلَّتين : إما أهجو كريمًا فأهتك عِرْضه ، وإما أهجو لئيمًا لطلب ما عنده ، فنفسي أحق بالهجاء ؛ إذ سولت إلى لئيم [١].

وقد رفض ابن قتيبة هذا الإدراك القاصر ؛ إذ إن المديح بناء والهجاء بناء آخر ، وليس كلٌّ بان لضرب بصيراً بغيره [٢] . وإدراك الدلالة الحقيقية قد يتأتى من خلال اكتشاف نظام الصياغة وعلاقاتها المتشابكَة في القصيدة ؛ لأن الاقتصار على جزئية واحدة ، أو عنصر من عناصر التركيب قد يؤدي إلى اختلاط الدلالات ببعضها . ومن هنا عرض ابن رشيق لكثير من النماذج الجزئية واعتبرها من باب ما أشكل من المدح والهجاء ، فمن أناشيدهم :

أبوكَ الَّذي نُبِّتَ بِحَبْسِ خَيْلِهِ غَداةَ النَّدى حَتّى يَجِفَّ لَها البَقْلُ

« قالوا : إذا أخذ مطرُ الصيف الأرض أنبتت بقلا في أصول بقل قد ييس ، فذلك الأخضر هو النشر ، وهو الغمير ، فتأكله الإبل ، فيأخذها السهام ، ولا سهام في الخيل ، فعابه بالجهل بالخيل . وقال الأصمعي : هذا القول خطأ ، بل مدحه بمعرفة الخيل ؛ لأن النشر مؤذٍ لكل من يأكله وإن لم يكن ثم سهام . » [٣]

---

(١) محمد بن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر . القاهرة ، دار المعارف ، ص ٥٤٥ . (٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج١ ، ص ١٤ .

(٣) ابن رشيق : العمدة ، ج ٢ ، ص ١٥١ .